«الشعر في مواكبة الانتفاضة»

" الفتية الأبابيل "

للشاعر يوسف العظم

لم تكن الانتفاضة الإسلامية المباركة في فلسطين المحتلة حدثاً عادياً يمكن المرور به مرَّ الكرام . ذلك أنها كانت وبشهادة العالم أجمع من أروع الثورات التي يفجرها شعب أعزل، إلا من إيمانه وحجارته في وجه آلة قمع شرسة ، تنطلق من أوهام توراتية زائفة . من هنا حاول الكتاب والأدباء في طول الوطن العربي وعرضه مواكبة هذا الحدث ومحاكاته عبر سيل من القصائد والقصص والمقالات ، ولكن أكثر ما كتب حول الموضوع ظلَّ متواضعاً أمام مارد الانتفاضة . وبقي ملقى على هامش الحدث دون الولوج إليه وسبر أغواره.

لقد فاجأت الانتفاضة العالم أجمع وبالذات جمهرة الكّتاب الذين أدمنوا فيما مضى عملية جلد الذات . . والتباكي على الواقع العربي المأزوم . إن ما يميز هذه الانتفاضة المباركة هو بعدها الإسلامي من خلال الطرح الجديد الذي بثته في روح هذه الأمة . إذ أعادت القضية إلى نصابها الصحيح من كونها حرباً بين عقيدتين ومشروعين حضاريين لا مكان لأحدهما بوجود الآخر . لذلك كان الأديب المسلم هو وحده الذي استطاع أن يدرك سر عظمة الانتفاضة ومفتاح نجاحها .

* نشر المقال في صحيفة (المسلمون) - عدد ٢٢٣- ١٢/ ٥/ ١٩٨٩ .

لقد كان هو الذي انتصر للانتفاضة ، ذلك أن نصرة الانتفاضة لا تكون إلا بالتأكيد على القيم السامية التي طرحتها ، وهذا ما قام به الشعراء الإسلاميون ، ويأتي على رأسهم شاعر الأقصى يوسف العظم من خلال ديوانه الجديد (الفتية الأبابيل) ، الذي صدر عن دار الفرقان في عمان.

منذ البداية نلاحظ الاستدعاء الموفق للرمز التاريخي في عنوان الديوان (الفتية الأبابيل) في إشارة موفقة إلى القصة القرآنية المعروفة في سورة الفيل ، إذ أطلق . . النص القرآني نعت (الأبابيل) على الطير التي أرسلها رب العزة وهي تحمل حجارة من سجيل ترميها على جيش أبرهة الأشرم القادم لتدمير الكعبة . ولعل من النادر أن نجد استخداماً موفقاً للرمز التاريخي في دواوين الشعر الإسلامي للأسف برغم ما يحتضنه تاريخنا من رموز مضيئة قابلة للتوظيف من قبل مبدعينا الإسلاميين ، وقد وفق شاعرنا في بعض الأحيان في هذا الجانب ، يقول في قصيدة الفتية الأبابيل:

أبو عبيدة يرنو نحو هامتها

وخالد من سيوف الله مسلول

وجعفر جاثم كالليث يرقبها

وقد أطلَّ يناجيها شرحبيل

قد بت أخشى خيانات تمزقنا

ويقتل «الحق» في المحراب «قابيل»

متى تعود إلى الأقصى جحافلنا

وقد أضاءت حمى الأقصى قناديل

يبرز في هذه الأبيات التوظيف الموفق لرموز الجهاد والشهادة في التاريخ الإسلامي . . أبو عبيدة ، خالد بن الوليد ، شرحبيل بن حسنة . . بالاضافة إلى رمز البغي والقاتل الأول في تاريخ البشرية (قابيل) .

الديوان بمجلمه يدور في فلك الانتفاضة والجهاد الفلسطيني ، ويحاول الشاعر فيه زرع مجموعة من المعاني في نفس قارئه بأسلوب متفاوت ينحدر أحياناً ليغرق في الانشاء واللغة العادية ويعلو أخرى ليثير القارئ بجملة من الصور الشعرية والاستعارات الموفقة .

● يؤكد الشاعر في مواضع كثيرة على أن منطلق الشعب الفلسطيني في ثورته منطلق إيماني نابع من الفطرة الإسلامية المتجذرة في أعماقه كقوله :

حجارة القدس نيران وسجيل

وفتية القدس أطيارٌ أبابيل

وساحة المسجد الأقصى تموج بهم

ومنطق القدس آيات وتنزيل

والشعب يزحف إيماناً وتضحية

ما عاد يوقف زحف الشعب تنكيل

وصيحة الشعب جسراً في تدفقه

من المساجد تكبير وتهليل

حيّوا الجموع التي هبت لنجدته

يقود ركب الهدى للنصر جبريل

وفي قصيدة أخرى يقول في نابلس:

سلاحها النور والايمان تحمله

ودفقة من دم الأبرار ترويها

● هناك تأكيد متواصل على أن البحث عما يسمى سلاماً مع اليهود ، ما هو إلا خداع ، ولن يجني اللاهثون خلفه سوى الوهم، ولن يحصدوا غير السراب نظراً لتركيبة المجتمع الصهيوني ، الذي لا يؤمن بغير منطق القوة:

يدعون السلام والكل ذئب

يتباهى بالناب بالأظفار

خاطبيهم في كل مجلس أمن

وسلام وملتقى أسرار

إن غدر اليهود ما زال رمزاً

لجبان مقامر غدار

ويقول في قصيدة أخرى مخاطباً (الخليل) المدينة الفلسطينية الشامخة :

أنت ساح فيه الأباة تنادوا

يرفضون الحياة سلماً هزيلا

● في القصائد محاولة لزرع حب الشهادة في نفوس الساعين والتأكيد على قيمة الشهيد ومنزلته عند الله عزوجل.

وراية الله من في الساح يرفعها

ودعوة الحق من في الكون يعليها

غير الأباة تحدوا دونما وجل

في كل منطلق للزحف تحييها

روح الشهيد تنادي وهي راضية

والله من جنة الرضوان يعطيها

هذه المعاني تتجول بحرية في ساحة الديوان ، دون أن تجد منافسة من أفكار أخرى مهمة ، وقد أهدى الشاعر كل قصيدة على حدة بكلمات نثرية معبرة ، ناهيك عن الاهداء الأصيل للديوان بمجمله والذي كان وكما هو متوقع للفتية الأبابيل. . . يقول الشاعر في الاهداء :

إلى الفتية الذين بعثوا الماضي من رفات !

وأيقظوا الحاضر من سبات!

وخطوا نحو المستقبل في ثبات!

إلى فتية الحجارة والمقلاع . . . الفتية الأبابيل .

وإلى من أرضعتهم مع اللبن حب الله ورسوله وحب القدس والأقصى وفلسطين أهدي هذه القصائد من وحي انتفاضتهم المباركة .

الاشكال الرئيسي في الديوان هو التكرار، فالقصائد هي عملياً قصيدة واحدة تختلف فيها الأسماء، وهذا ولا شك

إشكال كبير لا ينبغي المرور عليه، ولعل عظمة الحدث تغفر للشاعر ذلك .

●●●